المنهج التكاملي:

لقد عيب على المناهج النقدية نظرتها الجزئية إلى النصوص ، فراح بعض النقاد يشتغل على تدارك قضية الجزئية هذه باقتراح منهج ، يأخذ من كل المناهج و يجعلها تكمل بعضها البعض. " يأخذ من كل منهج ما يراه معينا على إصدار أحكام متكاملة على الأعمال الأدبية من جميع جوانبها

و قد تعددت المصطلحات المعبرة عن هذا المنهج ، فقد "أطلق عليه آخرون تسميات أخرى منها النقد المتعدد أو المتكثر، والنقد الكمي، والنقد الحواري " كما يقول نعيم اليافي الذي انشغل بالتنظير لهذا المنهج و آثر مصطلح "التكاملي" على باقي المصطلحات " رغم ما توحي به هذه الكلمة من ظلال دلالات ربما أساءت إليه.

لقد دعا إلى المنهج التكاملي في النقد الغربي "**ستانلي هايمن** " في كتابه "النقد الأدبي ومدارسه الحديثة " حيث تحدث عن إمكانية قيام منهج يستضيء من نور المناهج السائدة ، مستعيرا منها وسائلها و موفقا فيما بين إجراءاتها ، يقول:" لو كان في مقدورنا ، وهذا مجرد افتارض ، أن نصنع ناقدا حديثا مثاليا لما كانت طريقته إلا تركيبا لكل الطرق والأساليب العلمية التي استغلها رفاقه الأحياء، و إذا لاستعار من جميع تلك الوسائل المتضاربة المتنافسة ، و ركب منيا خلقا سويا لا تشويه فيه"

"وكان سيد قطب أول من أطلق هذا الاسم ودعا إليه في كتابه النقد الأدبي بطبعته الأولى 1946م"، إذ يبين أنه سلك هذا المنهج في الفصول الأولى من كتابه المشار إليه سابقًا، وفي كتابيه الآخرين: التصوير الفني في القرآن، وكتب وشخصيات.

وعن مصطلح المنهج التكاملي، يقول أحمد كمال زكي: لعل هذا المصطلح لا يخضع لأي تعريف فني واضح المعالم، فهو ليس نقدًا تاريخيًا خالصًا، ولا نقدًا بلاغيًا ضيقًا، ولا نقدًا نفسيًا محددًا، بما يدلى به أقطاب السيكولوجية من تفسيرات، وترجيحات متعددة، وقد تكون متناقضة، كما أنه لا يقف عند حدود معينة بقدر ما يقف عند الشكل التعبيري ودلالاته، وقد يطيل الوقوف عند النسيج باعتباره قالبًا لمعان تنقل، ويمكن أن تحلل، شأنها في ذلك شأن أية تجربة إنسانية، وفي الوقت نفسه يواجه بصراحة الإمكانات اللغوية التي تفتق عن مثلها ذهن عبد القاهر

الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة، والإمكانات التي يهيئها نوع العمل الأدبي بحسب استعداد الأديب وثقافته وأيديولوجيته..." .

فالمنهج المتكامل في نظره "يتعامل مع العمل الأدبي ذاته، غير مغفل علاقته بنفس قائله، ولا تأثرات قائله بالبيئة، ولكنه يحتفظ للعمل الفني بقيمه الفنية المطلقة، غير مقيدة بدوافع البيئة وحاجاتها المحلية، ويحتفظ لصاحبه بشخصيته الفردية، غير ضائعة في غمار الجماعة والظروف، ويحتفظ للمؤثرات العامة بأثرها في التوجيه والتلوين، لا في خلق الموهبة ولا في طبيعة إحساسها بالحياة".

"واستطاع المنهج التكاملي أن يفرض وجوده منذ وقت مبكر –على حد تعبير احد النقاد–؛ فتحدث عن سماته غير واحد من الدارسين مثل عبد القادر القط، وعالجه بتوسع شوقي ضيف في كتابه البحث الأدبي، ويعد إبراهيم عبد الرحمن واحدًا ممن حددوا عناصره، مثل استناد النص إلى الواقع الذاتي والاجتماعي والطبيعي وانفتاحه على أشياء أخرى، ومن ثم إعادة تشكيله فنيًا، لأنه قابل للإجراء الفني والنقدي، وغير قائم على التناقض مع المناهج النقدية القديمة والحديثة؛ وإنما يتعاون معها بشكل شمولي في إطار الوحدة في الموضوع والقصيدة والمواقف... دون إهمال لتحديد وظيفة الأغراض. وحين أشير إلى المنهج التكاملي وذاكرًا هذا الاسم أو ذاك ليس من باب التحيز له؛ أو جعله السابق فيه، وإنما باعتباره واحدًا من رواد هذا المنهج".

وشوقي ضيف لم يعالج المنهج التكاملي بتوسع – كما يدعي حسين جمعة– ولكنه دعا لاستثماره بعد أنَّ بيَّنَ مناهج البحث الأخرى: الطبيعية والتاريخية والنفسية... دون أنْ يضع حدودًا لهذا المنهج، أو يبين أدواته وإجراءاته الخاصة.

وحديثه عن المنهج التكاملي جاء مختصرًا وإن خصص له فصلًا في كتابه، قال في بداية الفصل: "... ولذلك كان على الباحث أن يفيد من هذه المناهج والدراسات جميعًا، وهو ما نسميه المنهج التكاملي".

وقال أيضًا: "وواضح من كل ما سبق أنَّ الباحث الأدبي الحديث ينبغي أن يستضيء في عمله بكل المناهج والدراسات السابقة، إذ لا يكفي منهج واحد، ولا دراسة واحدة لكي ينهض بعمله على الوجه الأكمل، بل لا بد أن يستعين بها جميعًا، حتى يمكن أن يضطلع ببحث أدبي قَيِّم..." .

ومن الذين اتبعوا المنهج التكاملي أيضًا "أحمد كمال زكي، وشكري فيصل، وعبد المنعم خفاجي، وجورج طرابيشي، ويوسف الشاروني، وعمر محمد الطالب، وإبراهيم عبد الرحمن، وغيرهم".

ويصف عبد العزيز عتيق المنهج التكاملي بقوله: "فهو منهٌج مرن لا يقف عند حدود معينة، وإنما يأخذ من كل منهج ما يراه معينًا على إصدار أحكام متكاملة على الأعمال الأدبية من جميع جوانبها".

ويسميه إبراهيم عبد الرحمن محمد: النقد التوفيقي والتكاملي، ففي دراسته: آراء نازك الملائكة في نقد الشعر بين النظرية والتطبيق يقول: "إنها – يقصد نازك الملائكة – تتبنى اتجاهًا نقديًا حديثًا، هو في الحقيقة ثمرة هذا التاريخ الطويل الذي عاشته الحركة النقدية بالنسبة للغرب، منذ أفلاطون وأرسطو إلى العصر الحديث، وبالنسبة للعرب، منذ القرن الثاني الهجري حتى العصر الحديث، مما كانت ثمرته اتجاهات وفلسفات ونظريات كثيرة ومتنوعة، أخذت تقلق الناقد المعاصر وتحيره، خاصة في البيئات العربية التي لم تقطع في العصر الحديث شوطًا طويلًا في تنمية أدواتها النقدية، أو تعي بعمق تراثها من النقد القديم، هذا الاتجاه النقدي هو ما يعرف بالنقد التوفيقي".

"وسواء يسمى هذا الاتجاه تكامليًا – كما ذكر الدكتور كمال زكي – أم اتجاهًا علميًا على ما ذكر الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد، الذي رأى فيه اهتمامه بنقل مناهج العلوم إلى الأدب، فترى فيه شعرًا ونثرًا نتاج بيئة سياسية أو اجتماعية حينًا أو إفرازًا نفسيًا، ذاتيًا أو اجتماعيًا، حينًا آخر، فإنه ظل مسيطرًا على الدراسات الأدبية حتى اليوم وبقيت حاجة الدراسة الأدبية والنقدية إليه ضرورة تفرضها طبيعة الشكل الفني".

"والتكاملية عملية مركبة في النقد تجعل منه إبداعًا موازيًا للنص، وتصنيفًا مرتبًا لحركة الإبداع، كما تعطي الناقد قدرة وحرية على ممارسة التحليل النصي في اختيار المناهج التي يراها قادرة على فك الرموز، وتحليل الشفرات، وهذا المنهج لا يفصل النص عن بيئته التاريخية، والاجتماعية بل يجعل منه – أحيانًا – ثمرة لتلك الخصائص المركبة فضلًا عما يمتزج بها من رؤية خاصة للناقد وتكوينه النفسي والعلمي، وسيادة تيارات عامة وذوق وتأثير".

ويحده رمضان حينوني بقوله: "والمنهج التكاملي: هو المنهج الذي تشترك فيه عناصر من مناهج مختلفة، قد تقل أو تكثر بحسب درجة الإتلاف في ما بينها، ولا يقصد به الكمال؛ لأنه لا كمال في ما يتعلق بفكر أو علم إنساني مبني على الرأي والنظر العقلي". وهذا حد واسع لا يبين آليات هذا المنهج وأدواته الإجرائية.

مفاتيحه:

"أما المفاتيح الإجرائية للمنهج التكاملي فقد حددها نعيم اليافي في خمسة، هي: الموسوعية، الانتقائية، الانفتاحية، التركيبية، النصية. ويوضح عامر رضا هذه المفاتيح كالآتي:

"الموسوعية: وهي المظهر الخلاق للتكاملية أو التعددية، ومن دونها ليس لهما معنى.

الانفتاح: نجده يتعلق بذهن الناقد وحالته النفسية بغية انفتاح النص على قبول الإجراء النقدي، وانفتاح الناقد نفسه على قبول مختلف التقنيات النقدية.

الانتقائية: هي ضريبة الموسوعية حين تكون ذات معرفة موسوعية فلا بُدَّ لك أن تنتقى.

التركيب: فإنه يعني بناء مجموعة من العناصر منتقاة وفق خطة متصورة ومرسومة لا تتم كيفما أتفق، أن التركيب صهر للعناصر أو تذويب لإنتاج حالة ثالثة جديدة.

النصية: احترام هوية النص والنقد القائم عليه دون إفراط ولا تفريط".

المنهج التكاملي في النقد الغربي:

أما رأي بعض علماء الغرب بالمنهج التكاملي فسأنقل في هذا التقرير لاثنين ممن ذكروا المنهج التكاملي: أما الأول فهو **روجيه فايول** صاحب مقالة بعنوان: النقد الأدبي، يقول: "ومن المسموح أن نحلم بنقد شامل، يتوصل إلى تفهم أحسن للأدب، مستعملًا مختلف المناهج المعروفة، لكن لا تنسَ أنه يجب ألّا نغالي في قدرات النقد، ولا ننسى الأخطار الناجمة عن اختيار ما يبدو مناسبًا؛ الأمر الذي يجعلنا نتجاهل الأبعاد الأيديولوجية والمذهبية الخاصة بكل منهج. إن لكل مدرسة نقدية فكرة معينة عن الأدب".

وأما الثاني فهو **إنريك أندرسون إمبرت** صاحب كتاب: مناهج النقد الأدبي، إذ يتحدث عن بعض المدارس النقدية، وبعد ذلك يدعو إلى ما يسميه: النقد متكاملًا، فالناقد لا يستطيع حمل نفسه على منهج واحد، أو طراز واحد من النقد، والناقد المتعمق – كما يصفه – "هو الذي يستغل كل الفروع، ويبارز كل المناهج التي تحاصره".